الفكر المقاوم أعلى مرتبة من مراتب الفكر التبشيري:

د. نديم البيطار

في كتاباتي المختلفة كنت انتقد باستمرار قصور الفكر العربي الثوري وعجزه، وأرجع العجز والقصور إلى ما أسميته بطبيعته التبشيرية (أو الميتافيزيقية) كما كنت أفسر هذه الطبيعة بإرجاعها نهائياً إلى إطارات نفسية وعقلية قبلية ولا واعية لا تزال تبلور الذات العربية، وتتفرع من فلسفة الحياة الدينية الما ورائية التي تحدد الوجود العربي التقليدي وتتسرب إليه في جميع مستوياته وظواهره وأبعاده، وتقولب الشخصية العامة. فما هو هذا الفكر التبشيري؟ ما هي طبيعته[١]؟ الفكر المثالي الطوبائي الميتافيزيقي، الأخلاقي، أو ما درجت على تسميته بالفكر التبشيري يتميز، فيما يتميز به، بالركض وراء مقاصد لا يمكن تحقيقها، أو نحو مقاصد لا ترتبط بالواقع الاجتماعي التاريخي الموضوعي والقوى الفاعلة فيه. فهو فكر يحاول، في الوقت نفسه، السعي وراء أهداف متناقضة ينفي بعضها البعض الآخر، أو الوصول إلى مقاصد معينة دون أن تتوفر له الوسائل المناسبة. الفكر العربي الثوري هو، أساساً وفي معظمه، من هذا النوع.

أية محاولة في تصحيح وضع ما (في إصلاحه بتجديده أو تبديله) تعتمد أساسياً، على الرغم من الدور الفعال الذي قد تمارسه الإيحاءات المثالية والمواقف التبشيرية، على تقدير واع وتحليل موضوعي للواقع التاريخي الاجتماعي السياسي الذي تعمل فيه. إن كلمة فرنسيس باكون لا تزال صحيحة وتشكل المنطلق لمحاولة من هذا النوع. "فكي نأمر الطبيعة يجب أولاً أن نعطيها". الفكر العربي الثوري فكر منحرف عن هذا المنطلق، وهو يعبر، في طابعه العام، عن تصورات ذاتية وليس عن اتجاهات وقوانين موضوعية، عن أشواق إنسانية لا تنطلق من أو ترتبط بالواقع الموضوعي وتحولاته المستقلة. فالتحليل الموضوعي في هذا الفكر يعطي مكانه للتخريج اللفظي. ولغة المقاصد الثورية تزيل لغة الديالكتيك التحولي الثوري. أسلوبه أسلوب وعظي يعتمد مواقف تكتيكية واستراتيجية قريبة تقدم بلباس بياني ومواقفه هي عادة سلسلة من الانفعالات بكلمات، بعبارات، بشعارات، بمزايدات، بصور شعرية، وليس بمفاهيم واعية ناضجة تعتمد نظرة موضوعية تحليلية، فاحصة، دقيقة، جامعة، مطابقة لوقائع الواقع الموضوعي وأحداثه، أو لمنطلق هذه الوقائع والأحداث. فهو فكر وصفات فرضية، أمرية،

http://anssar.al-taleaa.net

حول ما هو خير أو شر، ما هو صالح أو طالح، ما يجب صنعه أو يجب تجنبه، ما هي أحسن الطرق لنجاتنا إلخ. ولكن دون تحليلات تاريخية اجتماعية موضوعية تنشق منها هذه الوصفات. أما "التحليلات" التي نجدها فهي تحليلات شعائرية، أي تصورات وتجريدات قصدها أن تعلن عن شعار، عن مصطلح إيديولوجي، أو مفهوم عقائدي معين، يجرد الواقع عن مقوماته، من استقلاليته، من موضوعيته، يبشره ويخضعه. بما أن هذا النوع من الوصفات لا يحتاج إلى أي جهد فكري كبير ثابت مستمر في دراسة وتحليل وقائع التاريخ وظواهر الاجتماع، أو الديناميك الثوري الذي ينطوي عليه، فإننا نرى أعداداً وفيرة من العجزة الفكريين يزعمون أنهم أطباء، يتميزون بقدرة كلية في معالجة أمراضنا وفي تحقيق خلاصنا. كل عاطل فكري أصبح يزعم بأنه عالم. هذه الملاحظات العجلى حول طبيعة الفكر العربي الثوري التبشيري لا ترمي إلى غاية مجردة أو أكاديمية. إنها على العكس ذات غاية علمية أساسية. ففي أية تقييم لأية مشكلة عربية ثورية يجب أن نعي باستمرار طبيعة هذا الفكر، فنحذر منها لأنها تتسرب إلى كل شيء وتكمن وراء وفي مجمل مواقفنا الثورية. لذلك كان موقف التشكك، بل الاتهام، هو الموقف الذي يجب الانطلاق منه عند مواجهة أشكال هذا الفكر.

معركتنا مع الصهيونية، منذ ابتدائها عام ١٩١٨، كانت تتجه "بنوايانا" "بمشاعرنا" ورغباتنا، دون أن نأخذ بالاعتبار أوضاع العدو وأوضاعنا، أو نحسب حساب لطاقاتنا. فهي كانت تنظر إلى الواقع كما تحب أن يكون وليس كما هو. الفكر الذي رافقها وعبر عنها كان باستمرار عاجزاً عن رؤية هذا الواقع.

المقاومة الفلسطينية طرحت نفسها أو هكذا طرحها الفكر المقاوم –ليس فقط كفاحاً مسلحاً يرمي إلى تحرير فلسطين "من النهر إلى البحر" بل ثورة جديدة نتجاوز بها الثورات العربية السابقة، ثورة جديدة تعالج مطارح الضعف والنقص التي أدت إلى هزائمنا السابقة. ولكن الآن، وبعد مرور ست سنوات على ظهورها، نجد مع الأسف الشديد أن هذا التجاوز لم يحدث، وأن الفكر المقاوم لا يزال من ذلك الفكر الذي رافق تلك الهزائم. فهو لا يزال امتداداً للفكر الثوري التقليدي، أي لفكر يستمد الثورة من الأشواق والتصورات الذاتية فيعطي للمقاومة مقاصد وأبعاداً ثورية يستمدها من رغباتنا وليس من إطار الواقع الذي يحيط بها، ومما يسمح

http://anssar.al-taleaa.net

به هذا الواقع. فهو كذلك الفكر السابق يعتمد على "اللفظة" بدلاً من الوقائع والاتجاهات التي تسودها. فإن نحن أردنا ثورة من نوع معين، فإن هذه الثورة تشتق من ترديد كلمة ثورة، وإن نحن أردنا الوحدة فكل ما نحتاجه هو ترديد كلمة الوحدة أو الدولة الواحدة. فالكلمة تتميز بأثر سحري، تماماً كما ترى في العقلية الدينية. بضع كلمات بضع طقوس. هذا ما يحتاجه المرء في إحداث تغير في مجرى الأحداث، في تصحيح ما يعترضه، في تغليب إرادته على ما يجابهه من موانع وتحديات. إنه فكر جعل التخريج اللفظي يركب الوعي واستخراج حربه الشعبية التحريرية من لفظة التحرير.

في سبيل التمثيل على هذا العجز الأصيل في الفكر المقاوم[٢] (٢) سأقف فقط بما يسمح به مجال المقال من هذا النوع، عند المنطلق الأساسي الذي بدأ منه هذا الفكر، والذي بلور وحدد جميع مجالاته، وأعني تقديم المقاومة كحرب شعبية تحريرية مماثلة للحرب الشعبية في الصين وفيتنام والجزائر، مهمتها تحرير فلسطين "من النهر إلى البحر". وليس هناك أدل على الطبيعة التبشيرية لهذا الفكر المقاوم من هذا المفهوم. فهو مفهوم يفضح هذا الفكر ليس فقط كامتداد للفكر الثوري السابق –فكر الهزائم والنكسات– بل كامتداد للعقلية الدينية الغيبية، بل للعقلية البدوية السابقة لها. يتجاهل هذا المفهوم تماماً الأوضاع الموضوعية التي تعمل فيها المقاومة الفلسطينية والتي تختلف بشكل جذري جامع عن الأوضاع التي عملت فيها الحروب الشعبية التي اتخذتها أنموذجاً لها. بما أن حرباً من هذا النوع لا ترتبط بإرادة أو بمقاصد ثورية أو بعناصر ذاتية فقط بل هي نتيجة تفاعل هذه الأخيرة مع أوضاع موضوعية معينة، وبما أن هذه الأوضاع التي رافقته وأحاطت تلك الحروب هي غير موجودة ومفقودة تماماً في فلسطين المحتلة، فإنه يستحيل على المقاومة الفلسطينية أن تتحول إلى حرب شعبية تحريرية على غرارها.

هذه الأوضاع هي:

(١) أرض فلسطين أرض مكشوفة جرداء لا تعرف الكثير من الأدغال والغابات والوديان والأنهار والمستنقعات والجبال التي تسمح للمقاتلين التجمع بأعداد صغيرة أو وفيرة، بإنشاء نقاط ارتكاز وانطلاق واختفاء بالضرب المفاجئ ثم بالتخفي. نظرة واحدة خاطفة إلى خريطة فلسطين وخريطة أراضي الحروب الشعبية الأخرى، وخصوصاً أرض فيتنام –التي تشكل

http://anssar.al-taleaa.net

الحرب القائمة فيها الأنموذج الأول للمقاومة- كافية بأن تكشف للتلميذ المبتدئ تميز المقاومة عن جميع الحروب الشعبية الأخرى بأرض لا توفر أي شيء من الأوضاع الطبوغرافية التي كانت العماد الذي قامت عليه وفيه نماذجها. أية نظرة فاحصة نلقيها على الحرب الفيتنامية مثلاً تكشف بوضوح كيف أن جميع ما تقوم به وجميع أعمالها وجميع مخططاتها من تكتيكية واستراتيجية تعتمد على أوضاع طبوغرافية لا يوجد شيء منها في أرض فلسطين.

(٢) أرض فلسطين صغيرة الرقعة جداً. المسافة التي تفصل تل أبيب عن القاهرة نفسها لا تتجاوز الأربعمائة كيلومتر. هذا يعني أن المساحات الشاسعة التي تستطيع في غياب الشرط الأول أن توفر للمقاتلين القدرة على الحركة والتنقل دون أن يفاجئهم العدو، التي قد تسمح لهم بضرب بعض المراكز والمنشآت بأعداد وفيرة نسبياً ثم التبعثر والاختفاء قبل أن يتمكن العدو من اللحاق بهم، هذه المساحات مفقودة. فقوى الاحتلال تستطيع أن تصل بسرعة إلى المقاتلين في أية نقطة يضربون منها أو فيها، لأنها لم تجد أمامها أكثر من بضع عشرات الكيلومترات تفصل بينها وبين نقطة من هذا النوع.

(٣) الحدود القصيرة والمحدودة والمكشوفة التي تفصلها عن الأقطار العربية -لبنان وسوريا والأردن، التي يمكن للمقاتلين أن ينطلقوا عبرها إلى الأرض المحتلة، طبيعة الحدود هذه تسمح لقوى الاحتلال بسيادتها والتحكم بها، وعن طريق التحصينات والأسلاك والحواجز الإلكترونية، بأن تجعلها ممتنعة يصعب جداً على المقاتلين اختراقها. وهذا ما حدث فعلاً .

(٤) عدد السكان العرب القليل الذي لا يوفر تغطية كافية لأعداد وفيرة من المقاتلين كي تضرب العدو ثم تتمكن من الاختفاء. فالعرب في فلسطين كلها يشكلون ٣٥% من سكان إسرائيل، أي نسبتهم إلى قوى الاحتلال هي عكس ما هي عليه في الحروب التي يتخذها الفكر المقاوم أنموذجاً تحتذي به المقاومة. فبينما هي عشرة إلى واحد في الجزائر، وثلاثون إلى واحد في فيتنام (أي في فيتنام الجنوبية فقط وأثناء قمة الحشد العسكري الأميركي فيها) ومئات إلى واحد في الصين، فإنها في حدود "إسرائيل" ١٩٤٨ واحد إلى عشرة.

(٥) هذا العدد القليل من السكان العرب الذي لا يتجاوز الثلاثمائة ألف في المناطق اليهودية معزول عن السكان اليهود في أحياء خاصة. وهذا يضيف كثيراً إلى ضعفهم العددي في تغطية

http://anssar.al-taleaa.net

العمل الفدائي، ويجعل من المستحيل عليه أن يتحول إلى أكثر من عمل فدائي في هذه المناطق. هنا أيضاً تتميز المقاومة الفلسطينية عن جميع الحروب الشعبية الأخرى.

(٦) ما ذكرناه في البند الرابع والبند الخامس يعني أن الأوضاع الموضوعية في فلسطين توفر لقوى الاحتلال بشكل طبيعي ما عجزت فرنسا والولايات المتحدة عن تحقيقه في الجزائر وفيتنام، أي استخدام كل وسيلة عسكرية وتكنولوجية وحشية ممكنة في تجميع السكان في مناطق القتال وعزلهم في أمكنة منفصلة بغية تجريد الثورة من الكثافة السكانية التي تحتاجها في متابعة القتال وضرب العدو بشكل فعال، ثم أن "إسرائيل" تستطيع (لقلة السكان العرب) ممارسة سياسة طرد وإفناء تؤدي إلى تفريغ المناطق العربية من العرب إلى حد كبير، أو تفريغ بعضها تفريغاً شبه كامل، إن أخذ هؤلاء بتوفير تغطية خطيرة للمقاتلين. حسب تقدير "التايمز" اللندنية، وذلك من أكثر من عامين، كان عدد البيوت التي دمرتها قوى الاحتلال في ممارسة نوع من هذا التفريغ لا تقل عن ستة آلاف بيت.

(٧) احتلال فلسطين ليس احتلالاً سياسياً واقتصادياً فقط، بل هو أولاً وقبل كل شيء احتلال إسكاني، ينطوي على إزالة معالم شعب، إحلال شعب آخر مكانه، وعلى التوسع الجغرافي المستمر على حساب الأمة العربية ووجودها ذاته. إنه كيان اجتماعي سياسي قومي جديد، وهذا يميز النضال الفلسطيني عن جميع الحروب الشعبية الأخرى. ثم إن هذا الاحتلال الإسكاني التوسعي لا يعبر عن مقاصد إسكانية فقط، بل هو أيضاً امتداد لتركيب إيديولوجي معين يعبر عن ذاته في "أوهام وتصورات" العدو التي تنعكس في عقيدته الصهيونية. هذا يعني فيما يعنيه أن المقاومة الفلسطينية ستجابه تصحيحاً حازماً أكثر بكثير مما واجهته الحروب الشعبية الأخرى في الصين وفيتنام والجزائر، كما تعني أنها لا تستطيع الاعتماد، كهذه الأخيرة، على إثارة رأي عام يناصرها داخل صفوف العدو يشل انطلاقه العسكري ضدها. حرب الجزائر مثلاً انتصرت في فرنسا كما انتصرت في الجزائر. وكان انتصارها في فرنسا أحد الشروط الأساسية التي أدت إلى انتصارها في الجزائر. ما ينطبق على الجزائر ينطبق أيضاً على ثورة فيتنام ضد الغزو الفرنسي أولاً وضد الغزو الأميركي ثانياً. هذا العامل لا يتوفر للمقاومة الفلسطينية، وهو إن افترضنا جدلاً بأنه قد يتوفر لها في المستقبل البعيد، فإنه لن يتوفر لها على الأقل في المستقبل القريب.

http://anssar.al-taleaa.net

(٨) الحروب الشعبية التي نجحت كانت ضد عدو أصيب بهزيمة عسكرية ساحقة في حرب عالمية. فاليابان كانت قد هزمت في الحرب العالمية الثانية، وفرنسا كانت في وضع ضعيف من الانهيار الذي أصابها نتيجة هزيمة مماثلة بنجاح الصين وفيتنام والجزائر في حروب شعبية ضدها. ونجاح حروب شعبية أخرى في يوغسلافيا والبلقان ضد ألمانيا النازية لم يكن إذن نتيجة مواجهة مستقلة مع عدو متماسك، بل ضد عدو كان قد هزم عن طريق قوى أخرى. والولايات المتحدة التي لا ينطبق عليها هذا سوف تهزم ليس عسكرياً بل سياسياً بسبب المقاومة الأميركية الداخلية لسياستها. وثورة كوبا، إن صحت تسميتها كحرب شعبية، نجحت ضد نظام كان قد دب إليه الانهيار من الداخل في جميع مستوياته. كما أن الولايات المتحدة نفسها كانت قد تراجعت عنه. هذه الأوضاع لا تتوفر للمقاومة الفلسطينية. وبذلك تتميز عن جميع الحروب الشعبية الأخرى.

من ناحية أخرى، يجب أن نذكر بأنه إلى جانب هذه الحروب الشعبية القليلة التي نجحت، بسبب ما شرحناه من أوضاع، هناك حروب "شعبية"، أو محاولات أخرى كثيرة في خلق هذه الحروب، لم تنجح. ففي أميركا اللاتينية مثلاً شاهدنا منذ بداية الستينات حروب عصابات عديدة كانت تأمل بالتحول إلى حروب شعبية. ولكن على الرغم من نشاطها في بلدان عديدة هناك فإنها عجزت عن توسيع عملياتها إلى حرب شعبية في أي مكان. والآن في بداية السبعينات نرى هناك على الأقل اعترافاً ضمنياً بفشلها من قبل دعاة هذه الحروب. ولذلك نراهم يتحولون إلى حرب العصابات في المدن. إنني في عرض هذه الأوضاع وسلبياتها، لا أريد طبعاً تثبيط الهمم، بل التنبيه إلى أنه يجب أن لا نحمل المقاومة أعباء لا تسمح بها أوضاعها، أعباء عجزت عنها محاولات أخرى في الحروب الشعبية تعمل في أوضاع أكثر ملائمة. ليس هناك من طريق أقصر إلى تثبيط الهمم وإضعافها من ربط أية حركة ثورية، أي كفاح مسلح، بمقاصد "تبشيرية" لا تنفتح لها الأوضاع الموضوعية التي يعمل فيها. المقاومة يجب أن لا تضعف، أو حتى أن تهتز، وجميع جهودنا يجب أن تكرس في مساندتها ودعمها، ولكن يجب أن لا نطلب منها المستحيل، يجب أن لا نلقي على كاهلها مهمة لا تستطيعها، مهمة ترتبط بالعرب أجمعين، بالأمة العربية كلها. رحمة بالمقاومة يا ناس!.

http://anssar.al-taleaa.net

الفكر المقاوم تجاهل تماماً وكلياً هذه الأوضاع الفريدة التي تميز المقاومة عن جميع الحروب الشعبية الأخرى، والتي تلغي في الواقع إمكان تحولها إلى حرب من هذا النوع. إن المرء يعجب في الواقع كيف يمكن لفكر ثوري مسؤول أن يتعامى بهذا الشكل عن أوضاع موضوعية بارزة كهذه الأوضاع، فيتابع طريقه وكأنها غير موجودة. السبب الأول يعود طبعاً إلى طبيعتها التبشيرية، التي تعود، في دورها، إلى أسباب عديدة لا يتسع المجال لذكرها وتعدادها. ولكن بالإضافة إلى هذا السبب، نود التنبيه إلى سبب آخر عام يميز الفكر الإنساني ذاته، كما نعرف حتى الآن على الأقل، في مختلف المجتمعات والأوضاع. الناس، وإن تحرروا من الإطارات العقلية والنفسية الغيبية التي تشتق من فلسفة حياة دينية وعاشوا في مناخ فكري حضاري يسوده العلم والعلمانية، فإنهم لا يقلقون وينزعجون من، ولا هم يعون، متناقضات تفكيرهم، أو متناقضات هذا التفكير مع مقاصدهم، أو مع الأوضاع التي تحيط بهم، إن كانت هذه المتناقضات منسجمة مع نوازعهم وآمالهم. ميل الفكر الإنساني إلى تحقيق مصالحة ومطابقة بين مفاهيم وقواعد سلوك متناقضة بغية طمأنينة نفسية يحققها على حساب المنطق والعقل يشكل دعامة أساسية لهذا الفكر. ولكن الفكر الثوري الذي يفترض فيه أيضاً القدرة على الوعي الموضوعي لهذه المتناقضات فلا يتجاهلها بل ينبه إليها ويحذر منها ويدل على طريق في تجاوزها. فكر يعجز عن ممارسة هذا الدور لا يستحق أن يكون فكراً ثورياً. الفكر المقاوم عجز عن هذا. ويعني هذا من ناحية أخرى أنه يجب أن لا نقع ضحية "عقلانية" صرفة، فننسى أن الإنسان ليس حيواناً منطقياً وعقلانياً محضاً، بل هو أيضاً ككائن عضوي واجتماعي، حيوان لا عقلاني ولا منطقي. فتفكيره مشوه دائماً بمختلف المشاعر والميول والمصالح، وعندما يواجه أفكاراً وحقائق علمية تناقض مصالحه وعواطفه ومواقفه العقائدية والسياسية، فهو غالباً ما يتسرع إلى رفضها ونبذها دون أن تؤثر في سلوكه. فالأفكار والوقائع والحقائق الموضوعية التي تناقض هذا السلوك السياسي والاجتماعي والعقائدي، تدجن عادة بأكثر الطرق لا منطقية بغية مطابقتها لهذا السلوك. وفي كثير من الأحيان تشوه إلى درجة لا تبقي من الأصل شيئاً يذكر. تاريخ الفكر الإنساني حافل بهذه الظاهرة التي تتسرب إليه من جميع الجوانب. ولكن الفكر الثوري يعني الوعي. والوعي الحاد المرهف، للواقع ككل وفي جميع جوانبه، والعمل مع ما يتكشف عنه هذا الواقع من حقائق موضوعية. فكر يعجز عن ذلك يكون عاجزاً عن ممارسة دوره في سيادة الواقع وتوجيهه نحو مقاصده الثورية. الفكر

http://anssar.al-taleaa.net

المقاوم، عجز عن هذا الوعي. طرح المقاومة كحرب شعبية تحريرية غايتها تحرير فلسطين من "النهر إلى البحر" يكشف بوضوح أن الفكر المقاوم الذي يعبر عن هذا الموقف هو فكر لا يزال يمارس العقلية الشعائرية، والثورية اللفظية، والمنطلقات التبشيرية التي قادتنا إلى ١٩٤٨ وإلى ١٩٦٧، كما يكشف أن الإطارات العقلية والنفسية اللاواعية التي تحدد اتجاه هذا الفكر هي، في الواقع، إطارات مشتركة بينه وبين بكوات وبشوات عام ١٩٤٨. الحرب الشعبية ليست نوايا ذاتية، ليست مقاصد أخلاقية، ليست التزامات ثورية. إنها أكثر من ذلك بكثير. إنها أيضاً أوضاع موضوعية، علاقات طاقات، قوى، اتجاهات، إمكانات موضوعية تتفاعل معها وتتحد بها تلك النوايا والمقاصد.

كما في اقتباساتنا الحضارية الحديثة التي نأخذها خارجياً وعفوياً دون أن نعي تماماً مضمونها وفحواها ومتطلباتها، ودون ما يقابلها من تحولات ذاتية يجب أن ترافقها، كذلك أيضاً في مفهومنا للمقاومة ودورها. فقد أخذنا بعض المفاهيم والصور المألوفة التي رافقت حروباً شعبية أخرى، ولكن دون صلة بينها وبين أوضاعنا، ودون أي إدراك لهذه الصلة ومقوماتها. فهناك حروب شعبية ناجحة، إذن سوف نقوم بحرب شعبية نحرر فيها فلسطين "من النهر إلى البحر".بدلاً من بناء نظرية الأرض المحتلة، ما تسمح به، هذه الأوضاع. فإن المقاومة خضعت للابتزاز الثوري الذي سلطه على عنقها بعض "المفكرين[٣]" (٣) الذين تخصصوا "بالأمية الفكرية" فلم تستطع أن ترى خصوصية هذه الأوضاع الموضوعية، وعجزت أن تبني، بالتالي، استراتيجيتها وتكتيكها ومواقفها في ضوء هذه القراءة، فكانت النتيجة التخبط الذي رافقها حتى الآن والمآسي التي نتجت عنه ولا تزال.

المقاومة لا تستطيع أن تتهرب من المسؤولية، فمسئوليتها كبيرة، وهي لا تستطيع أن تبرر الخطأ، فالخطأ فادح، وهي لا تستطيع أن تتبرأ من الذنب، فالذنب واضح وأليم. كان عليها أن ترفض هذا السحب التبشيري الذاتي، الابتزازي، على واقعها للنموذج الصيني والجزائري والفيتنامي. ولا يزال عليها الآن وبسرعة أن تضع نهاية لذلك. إن الأوضاع الموضوعية لا تسمح لها، لا من قريب أو بعيد، ولا بأي شكل من الأشكال، ولا بأعوام وأعوام من الأعمال البطولية، أن تتحول إلى حرب شعبية على غرار الصين والجزائر أو فيتنام. بدلاً من أن تأخذ ذلك بالاعتبار فترى خصوصية الأوضاع التي تعمل فيها فتخلق لها نظرية عسكرية تنسجم

http://anssar.al-taleaa.net

معها، تجاهلت هذه الخصوصية. ولم تفرز أية نظرية من هذا النوع خاصة بها، بل أقالت نفسها طوعاً وتلقائياً من ممارسة هذا الدور، ورضخت لبعض الفئات والأقلام التي استخدمتها كأداة تعبر عن ثوريتها اللفظية.

رفض تصفية قضية فلسطين لا يعني في ذاته موقفاً ثورياً، وكموقف ثوري لا يعطي أية ميزة خاصة لأي فريق. ثم إن هذا الرفض ليس موقفاً استراتيجياً، وبينه وبين الموقف الاستراتيجي الصحيح هوة واسعة. الخطوة الأولى في تحويل هذا الموقف إلى موقف ثوري إستراتيجي صحيح هي تحليل الأوضاع القائمة تحليلاً موضوعياً صحيحاً ينطبق عليها كما هي. والخطوة الثانية هي ربط هذا التحليل ربطاً صحيحاً بمقاصدنا الثورية. المهم ليس رفض التصفية، ليس القول بالتحرير، فهذا أمر يلتقي فيه العرب كلهم تقريباً. ولكن المهم الكيفية التي تسعى بها في ممارسة الرفض، الكيفية التي تحاول بها إنجاز التحرير. فالقول بالرفض والتحرير ليس نظرية، وليس تخطيطاً استراتيجياً أو تكتيكياً، وهو كي يكون فعالاً فينتقل من موقف عام، من شعار، إلى فعل ثوري فعال، يجب أن يحدد التخطيط الاستراتيجي الذي يعتمده في تأكيد ذاته والوصول إلى غايته. فماذا يعني هذا الفكر؟ ماذا يعني فكر من هذا النوع؟ إنه يعني أن العقلية التي تمكن وراءه لا تزال عقلية غيبية، إن لم نقل بدوية. إن الإطارات النفسية والفكرية التي تعمل فيها لا تزال إطارات تقليدية، أي إطارات " دينية" رغم ما تعلنه من "علمية" ، وأن الثوريين الذين يعبرون عنه لا يزالون عقلياً ونفسياً جزءاً من الوجود العربي التقليدي رغم ثوريتهم اللفظية. ذلك لأن عقلية هذا الوجود، العقلية الغيبية التي تسوده، هي عقلية لا تعترف بالتاريخ حقيقة مستقلة، لا تعي أن هناك في التاريخ والاجتماع أوضاعاً واتجاهات موضوعية تخرج عن إرادة الإنسان ونواياه، عن مطامحه وأهوائه، عن أشواقه وتمنياته، وأن الإنسان الذي يريد التأثر فيها يجب أن يدرك منطقها أو وجودها المستقل فيعمل معهما وبهما. فهي عقلية تعتمد فقط القوى الذاتية وترجع إليها في كل شيء، وترى فيها مقاييس النجاح والفشل في كل شيء. فعن طريق الطقوس، وعن طريق قربنا من الله وجدانياً وأخلاقياً أو بعدناً عنه، تتحدد أعمالنا، ويتحدد مجرى الأوضاع التي تحيط بنا، أو أثرنا في هذه الأوضاع. فإن فشلنا، فذلك يعود إلى كون علاقتنا الذاتية بالله والقوى الغيبية لم تبلغ درجة الوجدانية الأخلاقية الصحيحة، أو لأن الله، الكلي القدرة والحكمة، تدخل لحكمة غير مرئية، ضد إرادتنا، أو لأن

http://anssar.al-taleaa.net

القوى الغيبية الأخرى من ملائكة وقديسين، أو ناحية أخرى من أبالسة وشياطين، حالت دون ما نبغيه. كل شيء يعود نهائياً إلى قوى ذاتية أو إلى قوى غيبية خارجة عن التاريخ وأوضاعه الموضوعية.

إن الفكر المقاوم يهمل بهذا الشكل الفادح خصوصية الأوضاع الموضوعية التي تحيط بالمقاومة، الخصوصية التي تدل بشكل عفوي تقريباً ودون أي جهد فكري كبير، وبشكل فقأ العين بوضوحها، على أن هذه الأوضاع تختلف جذرياً وكلياً عن الأوضاع التي رافقت الحروب الشعبية الأخرى التي يريد هذا الفكر المقاوم من المقاومة أن تحذو حذوها، فتقوم بدور مماثل لدورها، فلا يستنتج كما يترتب على ذلك من تناقض في جميع مجالاتها السياسية والعسكرية والاستراتيجية والتكتيكية والنظرية والتنظيرية. ويعني ذلك شيء واحداً: أن الإطارات الإيديولوجية اللاواعية التي تسود هذا الفكر هي جزء من الوجود العربي التقليدي ، أي أنها إطارات غير صالحة لقيادة المقاومة، غير صالحة حتى للعمل في النصف الثاني من القرن العشرين. إن الإطارات العقلية والنفسية التي تحدد نهائياً سلوكنا هي أساساً إطارات قبلية لا واعية تترسخ في ذاتنا أثناء نشأتنا الأولى، أيام الطفولة وفي السنين الأولى من دور المراهقة. الأجيال العربية الحالية نشأت كلها بدرجات متفاوتة في مجتمع تتسرب إليه العقلية والغيبية عميقاً في جميع مجالاته وأبعاده، وبذلك بلورت نشأتها ونموها الذاتي في إطاراتها النفسية والعقلية الخاصة. التحرر من هذه الإطارات تحرراً جذرياً عمل بطيء يحتاج إلى تحولات حضارية واجتماعية واقتصادية في بنية المجتمع، أو إلى درجة عليا من الوعي والثقافة الفكرية ، وبشكل خاص إلى هزات وأزمات نفسية عميقة يرافقها وعي فكري عميق، من ناحية أخرى، فإن هذا الفكر المقاوم يعني نتائج وخيمة جداً تترتب عليه. فعندما لا تستطيع المقاومة أن تمارس دور التحرير الذي ارتبطت به، أو بالأحرى الذي ربطت وشدت إليه، فإن التفسير لذلك لا يكون بالرجوع إلى أوضاع موضوعية تخرج عن إرادة المقاومة وذاتها، بل إلى نقص ذاتي في المقاومة، أو إلى عطل أساسي في العربي كإنسان، فتكون النتيجة تثبيط الهمم وشل إرادة الصراع، شتم المقاومة ومقاتليها وقادتها، تضخيم أخطائها – الأخطاء التي ترافق كل حركة ثورية–والتركيز عليها مهما كانت طفيفة، وإرجاع الفشل إلى هذه الأخطاء اليومية والتكتيكية التي لا يخلو نضال ثوري منها، أي نهائياً إلى قصور ذاتي. هذا مع الأسف

http://anssar.al-taleaa.net

ما بدأنا نراه ونسمعه والألم يمزق قلوبنا. وأسوأ من ذلك أنه أخذ يصدر عن بعض الذين ساهموا في ذلك الفكر المقاوم الشعائري التبشيري الذي أساء إلى المقاومة أكثر من أعدائها. أو قد تكون النتيجة محاولة أخرى في تجديد الجهد للتغلب على "الخلل الذاتي" . لو استطاعت المقاومة أن تتجاوز مماحكاتها وخصومتها ولو استطاعت أن تعالج التجزئة التي تضعفها ولو استطاعت تصحيح أخطائها التكتيكية ولو استطاعت أن توفق إلى منظِّر وقائد عسكري من طراز جياب الخ ...إذن لصح الوضع، و لاستطاعت المقاومة أن تحقق كحرب شعبية تحريرية تحرر فلسطين " من النهر إلى البحر". هذه نغمة لا نزال نسمعها ونضج بها منذ أن برزت المقاومة.

هذا القول لا يعني أبداً أننا نغفل من أهمية هذه الناحية الذاتية أو من ضرورة معالجتها وتجاوزها. إننا على العكس نعلق أهمية قصوى على ذلك إن أرادت المقاومة أن تمارس فاعلية عسكرية صحيحة. ولكن ما نود التنبيه إليه هو أن معالجة هذا "النقص" وإن تمت على أكمل وجه فإنها لن تستطيع أن تحول العمل الفدائي إلى حرب شعبية تحريرية تؤدي إلى إسقاط إسرائيل.

ذلك يؤدي فقط إلى زيادة فاعلية دورها الذي حددناه في مناسبات أخرى، " كدور تعثير وتخريب تمهيداً للتحرير" الذي يجب أن يكون من صنع الأمة العربية كلها وفي طليعتها الجيوش النظامية. وذلك مرة أخرى لأن الأوضاع الموضوعية لا ولن تسمح لها بممارسة دور إسقاط إسرائيل أو قد تكون النتيجة بروز هوة واسعة بين المقاومة ومقاصدها، بينها وبين الجماهير العربية نفسها. الفكر المقاوم انتدب المقاومة لإنجاز مقاصد يستحيل عليها إنجازها، ولذلك نرى أن الهوة بين هذه المقاصد وبين قدرة المقاومة الفعلية كانت تتسع مع الوقت. ولكن هذا الفكر تجاهل ذلك وأمعن في لوثته، واسترسل في معاندة الواقع بدلاً من تعديل موقفه الاستراتيجي في ضوء هذا الواقع

٥. الخطر في موقف كهذا أن هذه الهوة بين المقاصد التي انتدبت لها المقاومة وبين قدرتها الحقيقة، الهوة التي تعود أساسياً إلى أوضاع موضوعية طوبغرافية وديمغرافية وسياسية في الأرض المحتلة قد يؤدي، وبالفعل أخذت تؤدي، إلى بروز هوة أخرى بين المقاومة وبين الجماهير العربية. فمّما لا شك فيه أن هذه الجماهير ابتدأت تخسر شيئاً من حماسها السابق

http://anssar.al-taleaa.net

للمقاومة. هذا واقع يجب أن نواجهه بجرأة، بدلاً من تجاهله أو الخروج منه بالمزيد من التبشير. وإن تجاهل هذه الهوة بين المقاصد وبين القدرة الفعلية التي تسمح بها الأوضاع الموضوعية يعني أن الثورة ترجع إلى ذاتها وتنشغل بها بدلاً من الانشغال بالعدو فتنمو التصورات الذاتية على حساب التحليلات الموضوعية وتبرز المهاترات والمزايدات والمماحكات والخصومات الهامشية على حساب الممارسة الثورية، وتلعب الانشقاقات والصراعات الجانبية دوراً يجب ألا تلعبه على حساب مقاتلة العدو. هذه الظواهر هيمنت، كما نعلم، على المقاومة بقدر كان يسيء إليها ويعثر سيرها. إنها ظواهر لا تعود إلى أسباب ذاتية في المقاتلين ولا إلى نقص في إرادة القتال والتضحية ولم تبرز لأن مقاتلي المقاومة هم أضعف إنسانياً وأقل إقبالاً على الموت من إخوانهم في الجزائر أو مقاتلي الفيتكونغ، بل لأن الأوضاع الموضوعية في الأرض المحتلة لا تنفتح للمقاصد والمهمات التي انتدبت لها المقاومة الفلسطينية من قبل الفكر المقاوم. إنني أذهب إلى أبعد من هذا فأقول أن جميع "الأخطاء التكتيكية" التي ترجع إلى المقاومة تعود أساسياً إلى خطأها الاستراتيجي الأساسي في تبني دور التحرير كحرب شعبية، إلى غياب الأوضاع الموضوعية التي تنفتح لدور كهذا.

الحزب الشيوعي في فيتنام عن الأحزاب الشيوعية في البلدان الأخرى بوحدته التي لا مثيل لها. ففي تاريخه الذي يمتد إلى أربعين عاماً لم يمارس أي تطهير في صفوف قادته الرئيسيين. هذا لا يعني أن الحزب لا يعرف اتجاهات "يسارية: و "يمينية" و "وسطية" أو عبادة الشخصية. فهو عرف ويعرف كل هذا. ولكن حتى الآن كانت جميع الاختلافات تجد حلاً لها بشكل ودي، أخوي وعائلي، دون انقسام حزبي وانشقاقات وطرد وإزالة بعض القادة. هذه الظاهرة تزداد معنى ومغزى عندما نعلم أنه عند ولادته وبدايته في أوائل الثلاثينات كان يلوح وكأن مصيره سيكون مصير الحزب الشيوعي في جارته بورما، أي التمزق والانقسام إلى ثلاثة أحزاب. هذا التعبير أو الانقسام الذاتي الذي كان نصيب عدد كبير من الأحزاب الشيوعية ففي الثلاثينات، والذي رجع فأصبح نصيبها في الستينات، لم يذر قرنه في الحزب الشيوعي الفيتنامي. لماذا؟ هل يعود هذا إلى كون الشيوعيين الفيتناميين من طينة أخرى غير الطينة التي صنع منها الشيوعيون الآخرون؟ هل يعني أن قيادته هي، لسر غريب عجيب، أكثر ذكاء وتضحية ونكراناً للذات، وقدرة قيادية، من القيادات الأخرى؟ هل يعني أن القيادة وفقت إلى مقاييس

http://anssar.al-taleaa.net

تنظيمية حزبية لم تتوفر لأحد غيرها فاستطاعت أن تنطوي عليها وتحتفظ بها سراً من الأسرار لا تتسرب إلى الخارج ولا يعلم بها أحد؟ لا ، طبعاً. السبب الرئيسي الذي يفسر هذه الظاهرة هو أن الحزب، قيادة وتنظيماً وأعضاء، كان مشغولاً وغارقاً حتى الأذنين يومياً وباستمرار في معركة ضارية وهائلة ودائمة بغية الحفاظ على بقائه وبقاء الشعب الفيتنامي ذاته ضد هجوم الاستعمار والإقطاعية الشرس. والشيء نفسه ينطبق على جبهة التحرير في فيتنام الجنوبية. فإن كانت هذه الجبهة تضم ما لا يقل عن أربع وعشرين من المنظمات والهيئات والأحزاب المختلفة، تعمل يداً واحدة في وحدة ثابتة، فذلك يعود أولاً إلى حدة المجابهة اليومية الشاملة مع الاستعمار. هذا يدل أنه إن كانت المقاومة عاجزة حتى الآن عن تحقيق الوحدة العسكرية والسياسية التي تفرضها معركة "إسقاط إسرائيل" فذلك لا يعود إلى خلل ذاتي، بل قبل كل شيء إلى كونها لا تخوض معركة ضارية شاملة من ذلك النوع، ولا تعاني تلك المجابهة اليومية الحادة الجامعة مع الاحتلال. ولكن إن هي كانت لا تعرف تلك المعركة أو هذه المجابهة فلأن الأوضاع الموضوعية من طوبغرافية وديموغرافية لا تسمح بمعركة و لا بمجابهة على هذا النحو والشكل. هذا يدل بطريق غير مباشر، على خطأ الفكر المقاوم، وخطأ الدور الذي شدت إليه المقاومة.

ثم هناك الرأي العام العالمي مثلاً، الذي يتخذ من قضية فلسطين وثورتها موقفاً مختلفاً عن الموقف الذي يتخذه من فيتنام وثورتها. إننا نتساءل بمرارة وخيبة عن هذا التناقض، ونرجعه عادة إلى أسباب خارجية، أو إلى قصور الإعلام العربي. لا شك أن لهذه الأسباب أثرها، ولكن لا شك أنه أثر ثانوي جداً. فإن كان "حمام" أوروبا وأميركا فيما يتعلق بفيتنام يتحول إلى "صقور" فيما يتعلق بقضية فلسطين، فذلك يعود أولاً وقبل كل شيء إلى عجز العمل الفدائي عن الارتفاع إلى صعيد الثورة الفيتنامية، من حيث القدرة والفاعلية، أي إلى قصوره عن ممارسة الدور المستحيل الذي شد إليه دور الحرب الشعبية التحريرية على غرار الحرب الفيتنامية. هذا التناقض لا يقتصر على العالم العربي ومفكريه، بل يمتد أيضاً إلى الدول الشيوعية في أوروبا الشرقية. ولكن لو أن النضال الفلسطيني استطاع أن يكشف عن شيء يماثل فاعلية الحرب الفيتنامية من حيث الأثر العسكري والتضحيات لكان بإمكانه أن يقلب وضع هذا الرأي العام العالمي رأساً على عقب. ولكن كي يتمكن هذا النضال من ممارسة هذا

http://anssar.al-taleaa.net

الدور فإنه يحتاج إلى الأوضاع الموضوعية التي تحيط بالحرب الفيتنامية. وبما أن ذلك لا يتوفر فإن وقوف الرأي العام العالمي إلى جانبه بالشكل الذي يقف فيه مع النضال الفيتنامي هو أيضاً لن يتوفر. وهذا الفرق أساسي يميز النضال الفلسطيني عن الحروب الشعبية الأخرى وفي طليعتها الحرب الفيتنامية.

الإشارة إلى هذه الظواهر السلبية التي ترافق المقاومة لا ترمي طبعاً إلى التدليل على الضعف الذي يرافقها بل إلى تفسير هذا الضعف بالأوضاع الموضوعية التي تحيط بها، الأوضاع الموضوعية التي تنفي الدور الذي ألزمها به الفكر المقاوم كحرب شعبية على غرار حرب فيتنام والصين والجزائر مهمتها تحرير الأرض المحتلة. كل ظاهرة ضعف في المقاومة يمكن إرجاعها إلى خطأ وتهور هذا المنطلق الأساسي، إلى هذا التناقض الجذري بين المقاصد التي أعطيت للمقاومة وبين الأوضاع الموضوعية التي لا تلائمها. كل نقد أو تقييم للمقاومة لا يرجع نهائياً إلى هذا التناقض ويأخذه بالاعتبار يظلم المقاومة ويسيء إليها. فالمقاومة كانت رائعة ليس فقط في ظهورها وفرض ذاتها، ولم تكن رائعة فقط في تفجرها في وقت كنا أشد ما نحتاج فيه إلى هذا النوع من التفجر، بل كانت و لا تزال وسوف تبقى رائعة بصمودها الصلب الكبير رغم هذه الأوضاع السلبية الهائلة التي لا يمكن لأية ثورة أو حرب "شعبية" مهما تكاملت أن تسودها أو تتحكم بها. المقاومة تقوم بعمل صمود جبار، وبدور تاريخي كبير، وبعد تلك الهزيمة العسكرية النكراء في حزيران، استطاعت بظهورها أن تعلن عن استمرار الرفض العربي فتعيد للجماهير إيمانها وللأمة ثقتها بنفسها وتركز مشاعر الرفض وتحول دون اتساع وتضخم آثار الهزيمة.

هذا التناقض، وليس شيئاً آخر (كما يحلو للبعض أن يقول)، هو الذي يفسر اقتصار عملياتها العسكرية الأساسية على الحدود. وهو وليس أي شيء آخر الذي يفسر عجزها عن استخدام قوتها المقاتلة في الأرض المحتلة. هو وليس أي شيء آخر الذي يفسر بلاغاتها المضخمة. هذا التناقض، وليس أي شيء آخر، ، هو الذي يفسر أيضاً كثيراً من الظواهر السلبية التي عانتها و لا تزال تعانيها في الأقطار العربية. خذ مثلاً موقف الجيش الأردني المتماسك تجاهها في هزيمة أيلول الماضي. فأن يبقى هذا الجيش متماسكاً وأن لم تسرع العناصر الفلسطينية التي تشكل نسبة عالية فيه إلى الانضمام إلى المقاومة فذلك يعود إلى عداء أصيل من قبل

http://anssar.al-taleaa.net

الجيش، أو لأن العناصر الفلسطينية فيه لا تبالي بمقاصد المقاومة أو لأنها أقل وطنية والتزاماً بالتحرير من عناصر جيش فيتنام الجنوبي الذين يتركونه وينضمون إلى الفيتكونغ بمعدل عشرة أو أثني عشر ألفاً في الشهر، بل لأن المقاومة لم تبرهن لهم في الممارسة أنها تستطيع الفيتنام بدور التحرير لفلسطين كحرب شعبية مماثلة للحرب الفيتنامية وهو الدور الذي شدها إليه الفكر المقاوم الشعائري التبشيري.

التمرد يقود إلى عمل فعال في الخارج عندما نقتنع بأنه من الممكن تغيير هذا الواقع لمصلحة مقاصد التمرد. ولكن كي يدل التمرد على ذلك فيبرر هذه القناعة ويغذيها عليه أن يدل بوضوح على فاعليته اليومية في إجراء هذا التغيير. ولكن كي يتم هذا له وجب عليه أن يعمل في أوضاع ملائمة لهذه المقاصد لأن فاعلية التمرد لا تنتج عن قوى وطاقات ذاتية فقط، بل عن علاقة وتفاعل هذه القوى والطاقات مع أوضاع موضوعية مناسبة لمقاصد التمرد. أن حدة المحرك أو الباعث الذي يدفع ويحفز الجماعات والأفراد على الإبداع والالتزام الثوري تتغير وتتحول مع درجة التجاوب التي يحققها هؤلاء مع الاتجاهات والقوى والإمكانات التي ينكشف عنها الواقع التاريخي السياسي الموضوعي. فبقدر ما تزداد درجة هذا التجاوب تزداد حدة المحرك على الخلق والالتزام الثوري.

فالجماعات والأفراد يعجزون، بكلمة أخرى، عن ممارسة الخلق والإبداع وعن ممارسة الالتزام الثوري الفعال دون معاناة هذا التجاوب.

الفكر المقاوم التبشيري يتجاهل هذا، ويتغافل عن العلاقة الديالكتيكية بين الخلق وبين الوضع التاريخي، على الرغم من مضغه المستمر المضجر لكلمات "علمية" و " منهج علمي" و "جدلية" و "موضوعية" الخ ... إنه طرح مقاصده عن طريق تصورات ذاتية وليس عن طريق وعي موضوعي ديناميكي صحيح للمرحلة التي تحيط به، إنه يتشوق لكذا أو كذا من غايات، فيتبع الغايات دون أن يحاول اشتقاق الغايات من هذه المرحلة أو من الواقع الموضوعي الذي يعمل فيه، أو على الأقل دون القدرة على الربط بينها وبين القوى والاتجاهات والأوضاع الموضوعية التي تسودها. وقد طرح الفكر المقاوم المقاومة بشكل بسيط مبسط، أو كحقيقة تصاعدية مجردة. و لا عجب في ذلك. فالحقيقة بالنسبة للفكر التبشيري هي من هذا النوع التصاعدي ، "ومجالها" يكمن في بساطتها. أزمة المقاومة حالياً تعود إلى كونها طرحت بهذا

http://anssar.al-taleaa.net

الشكل التجريدي. الفكر المقاوم مسؤول عن ذلك، ومسئوليته هذه تجعل منه عدواً فعلياً للمقاومة.

شعائرية هذا الفكر المقاوم التبشيرية تجاوزت في كثير من الأحيان كل صلة واقعية ومنطقية مع الواقع، فكانت محض هلوسة وهذيان. فهو يدعو مثلاً إلى حرب شعبية على امتداد الوطن العربي ضد الإمبريالية، وكأن الإمبريالية أنزلت جيوشها وأصبحت تحكم أو تسود مباشرة هذا الوطن. وهو بشكل خاص حمل حملة شعواء على مصر لأنها لم تقم بهذه الحرب الشعبية. ماذا كان يريد هذا الفكر من ثورة مصر و قائدها الراحل الكبير؟ فهو يتكلم وكأن جيوش "إسرائيل" تساندها الجيوش الأميركية قد نزلت في القاهرة أو الريف المصري فامتنعت الثورة و قائدها عن متابعة الكفاح الشعبي المسلح ضدها.

الواقع أن حرباً شعبية ضد إسرائيل في الأقطار العربية المجاورة لها أو البعيدة عنها تفترض تعاون "إسرائيل" وقبولها بها، أي أنها قبل أن تصبح ممكنة يجب على إسرائيل أن تحتل الأردن ولبنان وسوريا ومصر–السكان وليس مصر– الصحراء فقط. ولكن إسرائيل أذكى مما تصور هذه التأتأة الفكرية الداعية شعوب هذه الأقطار إلى حرب شعبية ضدها على غرار ما تصنعه فيتنام. إن "إسرائيل" تعلم أن احتلال الأردن ولبنان وسوريا ومصر– السكان، أو أجزاء كبيرة منها، يعني إمكانات بشرية لا تملكها، كما تعني فرصة لحرب شعبية من هذا النوع ليس من مصلحتها حالياً على الأقل أن تعمل شيئاً على توفيرها. هذا من ناحية. أما من ناحية أخرى؟، فأننا نعلم أن الحروب الشعبية تعتمد قبل كل شيء على جماعات وطبقات تريد إقامة نظام اجتماعي سياسي جديد، وهي تعمل لهذا النظام الجديد لأنها تعاني يومياً وبشكل مباشر من قسوة واستغلال وامتهان غزو أجنبي يعتمد النظام القائم والطبقات التي تمثله. إن الجماهير في سوريا والعراق، وحتى لبنان والأردن–ماعدا الجماهير الفلسطينية في المخيمات وذلك فقط إلى درجة محدودة– لا تعاني هذه التناقضات الطبقية والاجتماعية أو هذا الاستعباد اليومي المهين على يد غزو أجنبي. لهذا لا يمكن دفعها إلى حرب شعبية ضد الأنظمة القائمة، كما أن بعد الاحتلال الصهيوني عنها يجعل حرباً شعبية ضده، وبالمعنى الذي تمثله التجارب الحية لها، لغواً لفظياً. الجماهير العربية خارج الأردن وفلسطين، وهذا واقع يجب أن لا نتجاهله، لا تزال بعيدة عن المعركة أي بعيدة عن التأثر تأثراً جذرياً مباشراً بها فهي لا تزال تعيش في

http://anssar.al-taleaa.net

إطار ولاءاتها التقليدية المحلية التي درجت عليها. التناقض العربي –الإسرائيلي الأساسي الذي يجب أن يكون منطلق الموقف العربي الثوري، لم يصبح بعد جزءاً من حياتها اليومية أو قاعدة لسلوكها السياسي. الحرب الشعبية بالنسبة إلى هذه الأقطار تعني فقط إقامة نظم ثورية تعمل على إخضاع كل شيء لمعركة التحرير وتوجه كل شيء في هذا السبيل وتكون قادرة على اعتماد الجماهير وعلى الكشف عن جميع إمكاناتها وإمكانات الأرض ودفعها كلياً إلى قلب المعركة.

الدعوة إلى الحرب الشعبية ضد إسرائيل في الأقطار العربية المجاورة أو البعيدة هي في الواقع محاولة في الهرب من واقع الحرب الشعبية في فلسطين وهو الواقع المستحيل الذي ارتبط به هذا الفكر. فقبل أن يدعو إلى تلك الحرب كان يجب على هذا الفكر أن يبرهن على صحة منطلقه الأول والأساسي: أي على وجود هذه الحرب في فلسطين. وقبل أن يدعو إلى تحويل لبنان وسوريا والأردن ومصر (مصر تقوم في الواقع بهذا الدور دون إرشاد وتوجيه هذا الفكر) إلى هانوي عربية، كان يجب على هذا الفكر أن يدرك أن هانوي من هذا النوع تحتاج إلى فيتكونغ وهي فيتكونغ غير موجودة. فلو أن هذه الأخيرة موجودة ومتوفرة لنا لفرضت فرضاً على الأردن ولبنان وسوريا أن تكون "هانوي" لها، شاءت هذه الأقطار أم أبت.

في تكيفنا مع الواقع الموضوعي نجد أمامنا طريقين يجب أن نختار بينهما: أن نغير مقاصدنا كي نجعلها متلائمة مع هذا الواقع، أو أن نغير الواقع نفسه بشكل يجعله متناسقاً مع هذه المقاصد. بما أنه يستحيل علينا كطلاب حق وحرية وتحرير أن نغير مقاصدنا، وبما أن محاولة في هذا الاتجاه هي خيانة، وبما أن الأوضاع الموضوعية التي تحيط بالمقاومة لا تنفتح لها كحرب تحرير شعبية تؤدي إلى إسقاط "إسرائيل"، ولا سبيل أمامنا سوى تغير دور المقاومة بشكل يجعله أكثر فاعلية في خدمة هذه المقاصد. إذن المشكلة هي كيف يمكن لنا أن نحتال على هذا الواقع فنطوعه لهذه المقاصد؟ كيف يمكن توجيه إمكانات الفداء والتضحية الكامنة في المقاومة، فنجعلها أكثر فاعلية؟ والمخرج ليس طبعاً الرجوع إلى الوراء، النكوص عن هذه المقاصد، بل تصحيح الخط الاستراتيجي العام الذي شدت إليه المقاومة. المجال لا

http://anssar.al-taleaa.net

يتسع هنا لأية معالجة وافية لهذا التصحيح وإيضاح خطوطه العامة. ولذلك اقتصر على بعض الملاحظات العامة.

عندما كنت في بعض المناسبات أوجه أحد دعاة هذا الفكر المقاوم بهذه الأوضاع الموضوعية التي تنفي إمكان تحول المقاومة الفلسطينية إلى حرب شعبية تؤدي إلى إسقاط "إسرائيل" وتحرير فلسطين كنت أرى عادة أنه يسرع إلى القول بأننا سنجد طريقة خاصة بنا في خلق هذه الحرب. هذا القول فقط خروج من الواقع وهرب منه وتأجيل لمواجهة جدية معه، أو رفض الاعتراف به كما هو. فمهما كانت هذه الطريقة خاصة –ولكل حرب شعبية طرق عديدة خاصة– يجب عليها أن تكون قادرة على تعبئة الجماهير ضد الاحتلال وعلى تجديد أعداد كبيرة منها ودفعها إلى ضرب العدو في أمكنة وأوقات تختارها، وبعد أن تضربه تختفي قبل أن يتمكن العدو من استخدام قوته التكنولوجية والعسكرية المتفوقة.

الحروب الشعبية، مهما اختلفت، تشارك في سمة عامة أساسية لا يمكن دونها أن توجد. فالحرب الشعبية هي محاولة في الالتفاف وفي "الاحتيال" على تفوق العدو التكنولوجي والعسكري الحاسم. وكي تستطيع ذلك يجب أن تتمكن من ضرب العدو وإصابته إصابات كبيرة دون أن تعطيه فرصة في استخدام تفوقه هذا. وكي يمكن لها ذلك يجب أن تتمكن أولاً من حشد أعداد وفيرة، ومهاجمة العدو بها دون أن يتمكن من اكتشافها. وثانياً أن تتمكن من اختيار مكان وزمان المعارك التي تخوضها ضد العدو. وثالثاً أن تتمكن من التخفي السريع بعد ضرب العدو وقبل أن يتمكن من ممارسة تفوقه ضدها. وكي تستطيع ذلك تحتاج إلى أوضاع طوبغرافية ديمغرافية معينة، وهي أوضاع لا يتوفر منها شيء في فلسطين. هذا يعني بكلمة أخرى أن السمة الأساسية التي تميز الحرب الشعبية لن تتوفر لأية "طريقة خاصة" تمارسها المقاومة في الأرض المحتلة. لهذا نرى أن هذا الفكر المقاوم لا يزال حتى الآن عاجزاً –عند كلامه عن الحرب الشعبية أو الطريقة الخاصة– عن تحديد الكيفية التي يتم بها ذلك، عاجزاً عن القول لنا كيف يتم تحول العمل الفدائي إلى حرب شعبية مهما كانت خاصة.

الحرب الشعبية كحشد لجميع طاقات وإمكانات الشعب العربي وتعبئتها في معركة تحرير فلسطين هي الحرب التي يجب أن نفهمها من هذا المفهوم.

http://anssar.al-taleaa.net

ولكن الفكر المقاوم يفهم منها شيئاً أخر هو كفاح الشعب المسلح غير النظامي الذي يؤدي إلى التحرير. وذلك واضح في اتخاذ رب فيتنام والصين والجزائر وخصوصاً الأولى، نموذجاً له. كما أنه واضح في حملته على الجيوش العربية النظامية "البالية " و "المهترئة"، ودعوته إلى صرفها. في هذا المعنى الثاني لا يمكن للمقاومة أن تتحول إلى حرب شعبية. وإن كانت الأوضاع الموضوعية في الأرض المحتلة لا تسمح للمقاومة بأن تتحول إلى حرب شعبية من هذا النوع كان يجب عليها إذن استبدال مهمة تحرير فلسطين تحت شعار " من النهر إلى البحر" بمهمة أخرى هي إضعاف الاحتلال تحت شعار " التعثير والتخريب كتمهيد للتحرير". لو أن المقاومة صنعت هذا منذ البداية فلم تصغ للفكر المقاوم التبشيري وتقع ضحية ابتزازه الثوري لكانت تجنبت الكثير من المهاوي والمنزلقات والأخطاء التي وقعت فيها، ولما كانت تعاني مما تعانيه من أزمة حالية. العمل تحت الشعار الخير يعني اتباع طرق تكتيكية واستراتيجية تختلف تماماً عن تلك التي اتبعتها حتى الآن. مساهمة المقاومة في هذا التحرير تكون آنذاك بالعمل على صعيدين. الصعيد الأول هو ممارسة القتال والفداء ضد الاحتلال بشكل لا يعثر ويضعف الاحتلال فقط، بل يسمح للمقاومة بالارتقاء إلى مستوى الجيوش النظامية، إلى درجة عسكرية تسمح لها بمساهمة فعالة جذرية في تحويل الجيوش العربية إلى جيوش أكثر قوة وفاعلية في ممارسة التحرير، وليس إلى تسريحها كما يريد الفكر المقاوم.

ليس هناك من موقف متهور غبي منحرف لا ثوري أكثر من هذا الموقف الذي يقول بتسريح وصرف الجيوش النظامية. إن صرف هذه الجيوش هو صرف لقضية التحرير ذاتها. وفيه يزول العمل الفدائي نفسه. أما الصعيد الثاني فهو نزع الإطار الفلسطيني واستبداله بالإطار العربي القومي الثوري، أو بالأحرى إحالة الأول إلى مرتبة ثانوية بالنسبة للثاني، الانطلاق من هذا الأخير وربط الأول به. أما كيفية متابعة هذين الصعيدين والطرق التكتيكية والاستراتيجية التي يجب اعتمادها في هذه الممارسة فموضوع اتركه الآن لأنه يخرج عن نطاق هذا البحث الذي لا يسمح حدوده بالتعرض له ومعالجته. على سبيل المثال فقط يكفي القول أنه لو بنت المقاومة استراتيجيتها على هذه الأوضاع والنتائج التي تترتب عليها لأدركت مثلاً أن معركتها تتجه ضد معظم الأنظمة العربية كما تتجه ضد إسرائيل وأن التغلب على الأخيرة يفرض أولاً التغلب على "إسرائيليات" الأولى، ولكانت أعدت نفسها بنفسها منذ البداية

http://anssar.al-taleaa.net

إلى إزالة النظام في الأردن. هنا أود فقط أن أشير بأن محور العمل في هذا الإطار العربي القومي الثوري الواحدة التي تجمعنا من الخليج إلى المحيط. فالمقاومة يجب أن تدفع جميع أعمالها في هذا الإطار إلى التمحور حول هذا القصد، فتقدمه وتقيس به كل قصد. طريق تحرير فلسطين بالنسبة للمقاومة، بالنسبة لنا جميعاً، هي طريق غير مباشرة، أي طريق تحقيق التحرير بالالتفاف حول فلسطين عن طريق الوحدة العربية. فالمقاومة يجب أن تقيس أعمالها كلها بهذا المقياس الوحدوي. فكل ما يخدم هذا المقياس يخدمها، وكل ما يعثره يعثرها. ولكن من المهم التأكيد هنا على أن متابعة هذا القصد، أي قياس كل شيء بهذا المقياس، لا يكفي وحده، بل يجب أن يتوفر له عملياً وفي الممارسة الخط الوحدوي الاستراتيجي الصحيح الذي يستطيع أن يقود إلى الوحدة، إلى الدولة الواحدة. إن معالجة هذا الموضوع تحتاج طبعاً إلى دراسة منفصلة. غير أنني هنا اقتصر فقط على القول بأنه إن كانت طريق تحرير فلسطين هي طريق الدولة الواحدة، فإن طريق الدولة تمر بمصر، ومن دون مصر لن تكون هناك وحدة أو دولة واحدة. وكما أن العمل الفدائي يجب أن يتمحور نهائياً وفي جميع أعماله حول القصد الوحدوي ، فإن القصد الوحدوي يتمحور نهائياً حول مصر الثورة، محوراً وقاعدة له. ولكن هنا أيضاً جر الفكر المقاوم المقاومة إلى منزلق خطير آخر أساء إليها و أدّى إلى أضعافها وبعثرة قواها بشكل بليغ. فبدلاً من دفعها في هذه الوجهة فإنه، عن طريق الثرثرة التبشيرية والتأتأت الفكرية الابتزازية حول "تصفية وشيكة" وحل سلمي على حسابها كان يتكلم عنهما منذ ثلاث سنوات على الأقل، أقام هذا الفكر بين هذه الثورة وبين المقاومة هوة أضعفتها وعرضتها لمزالق ومخاطر كانت بغنى عنها.

يجب على المقاومة أن تصارح مجموع الشعب العربي أن مهمتها تقتصر على التعثير والتخريب وليس على تحرير فلسطين وإسقاط "إسرائيل". وطرح المقاومة كأداة التحرير وإسقاط "اسرائيل"، دون ممارسة تدعمه وتبرره بنتائج وإنجازات ملموسة واضحة تتزايد مع الوقت، يؤدي إلى ضمور تأييد الشعب العربي لها. أما عندما تقتصر مهمتها على التخريب والتعثير، وتجعل مهمة التحرير مرتبطة بمجموع هذا الشعب من الخليج إلى المحيط، فإن ارتباط الشعب بها ينطلق آنذاك من أساس متين فلا يضمر ولا ينحسر أو يتلاشى. إنه على العكس يزداد مع الوقت لأن هذا الموقف يضع هذا الشعب باستمرار أمام واجبه التحريري

http://anssar.al-taleaa.net

الفلسطيني، يحثه ويحرضه على ذلك ويمارس دون انقطاع الضغط عليه في الإسراع بحشد طاقاته وتوحيد إمكانياته ودفعها في معركة التحرير. المهم هو انه على المقاومة أن تضع حداً لهذا النوع من الفكر المقاوم، فكر الممارسات الانفعالية واللفظية والخطابية والتبشيرية. فهذا الفكر يجب أن يزول ويعطي مكانه للفكر الثوري المسؤول الذي يعرف كيف يمارس الرصانة العلمية ، الذي يتميز بوعي موضوعي ناضج وبنفس طويل في ممارسة هذا الوعي.

العمل الفلسطيني الفدائي لا يستطيع أن يتحول إلى حرب شعبية تؤدي إلى إسقاط إسرائيل، ولكنه تحت شعار "التخريب والتعثر تمهيداً للتحرير"، يستطيع أن يتجاوز ذاته وأن يعمق قدرته فيرتقي إلى نوع العصابات الفعالة في أرض فلسطين، يمكنها مع الوقت أن تقض مضجع المحتل وأن تعثر وتضعف احتلاله وتمزقه فهو عمليات محدودة تقوم بها مجموعات صغيرة من الفدائيين تتشكل من بضع أفراد، أو من بضع عشرات من الأفراد، تخرب الاقتصاد ما يمكنها من المراكز العسكرية وتغتال المسؤولين المباشرين عن أعمال القسوة الموجهة ضد السكان العرب وتضرب السياحة عن طريق تدمير ما يمكن أن تصل إليه من وسائل نقل تحمل السائحين إلى درجة يمتنع فيها الناس في الخارج من زيارة فلسطين.

هذه "التبشيرية" التي تميز الفكر المقاوم في أهم أبعاده، أي في تحديد دور المقاومة الأساسي كدور حرب شعبية ترمي إلى إسقاط إسرائيل، كانت تؤكد ذاتها في جميع أبعاده الأخرى.

خصوصاً في موقفه المقزز من ثورة ٢٣ يوليو ، في فذلكاته الفكرية حول الحل السلمي والتصفية الوشيكة على حساب القضية العربية بشكل عام وقضية فلسطين بشكل خاص، في "طبقويته" وفي "اقتصاديته" الخ.... هذه التبشيرية سادت هذه المواقف إلى درجة لا أتردد فيها بالقول أن الفكر المقاوم كان مصيبة نزلت بالمقاومة. أن الدور الذي مارسه كان دور تعثر وتخريب وتهديم لها، وأنه كان فاشلاً فشلاً كلياً في تقديم أي إسهام إيجابي فيها. وويل للمقاومة من هذا الفكر قبل كل شيء آخر. ويل لها من "أنصارها" أولاً وليس من أعدائها. ويل لها من الذين استغلوا ظهورها لتأكيد ثوريتهم اللفظية الفجة والطفولية. ويل لها من الذين هرعوا يطبلون ويزمرون وهم لا يبغون سوى هوية ثورية جديدة لا تعرف سوى الشعارات والمزايدات، فضخموا دورها بشكل يستحيل عليها.

http://anssar.al-taleaa.net

الفكر المقاوم كان فكراً تبشيرياً، قلباً وقالباً، وبذلك كان يعبر عن التخلف الحضاري الذي نعانيه. فالتخلف لا يقتصر على الناحية العلمية والتكنولوجية والاقتصادية، بل يمتد إلى الناحية النفسية والفكرية والعقلية والإيديولوجية ويجد معناه بشكل خاص في هذه الناحية. هذا لا يعني أن مقومات الذات العربية مختلفة متأصلة فيها. بل أن الإطارات النفسية والعقلية والفكرية التي تحددها وتعمل فيها وبها لا تتجاوب مع العصر الحديث. فهي غريبة وبعيدة عنه. وفي هذا المعنى هي متخلفة. إننا نعلم مثلاً أن هذا النوع من التخلف كان يميز الذات العربية في مطلع الحضارة الحديثة وأطوارها الأولى، وأن الفكر العلمي والعلماني هناك كان يجب أن يصلي هذا التخلف ناراً حامية، نقداً مستمراً وجهداً دائباً في نقضه وتدميره إلى أن يستطيع تحرير الذات منه. ظواهر هذا التخلف كانت آنذاك-كما هي الآن عندنا- إطارات أخلاقية وميتافيزيقية عاجزة عن التجاوب مع التطورات الحضارية الحديثة.

ولذلك كان مؤسسو العلوم الحديثة يركزون جهدهم على تدمير هذا النوع من الإطارات.

الفكر المقاوم يعكس بشكل فصيح هذا التخلف، وهو رغم أقواله وكتاباته كان عاجزاً عن رؤية التاريخ رؤية موضوعية، كما هو، في ضوء ما يسوده من قوانين واتجاهات موضوعية. هذا النمط الفكري المتخلف، هذا الفكر التبشيري، لا يرى في الواقع سوى إرادات فردية وقوى ذاتية، وهو ينتهي دائماً بعبادة الإرادة والبطولة في تفسير التاريخ بدلاً من اعتماد ديالكتيك الواقع الاجتماعي السياسي التاريخي المستقل. إنه طبعاً لا يقول ذلك و لا يعلن عنه ولكن ذلك واضح في ممارساته. فهو مثلاً قدم للراحل الكبير وثورة ٢٣ يوليو أبلغ آيات العبادة والتقديس والتمجيد ولكن بعد نكسة حزيران انهال عليهما شتماً واتهاماً. وأصبح يخون حتى من يتعاون ويحاول اللقاء معهما. وهو قدم المقاومة كفاتحة عهد ثوري جديد، كالثورة الجديدة التي يجب الارتباط بها دون الثورات الأخرى، كالحرب التحريرية الصحيحة التي تضمن تحرير فلسطين الخ ...

ولكن بعد النكسة التي أصابتها في أيلول الماضي، أخذ هذا الفكر بالانقضاض عليها وبالنهش المقزز لها، كما ابتدأ بندبها وتأبينها. فكما ابتعد عن عبد الناصر وثورة يوليو سابقاً، أخذ بالابتعاد عن المقاومة حالياً، وذلك لأنها لم تنجح كما انتظر. لم تمثل البطولة التي يتشوق إليها. فهو يريد ثورة ظافرة رغم المقاصد التبشيرية المستحيلة التي يضعها لها. ثورة ظافرة لا

http://anssar.al-taleaa.net

تعرف هزيمة و لا تصاب بنكسات. فثورة ظافرة باستمرار هي التي تعبر عن عبادة البطولة وعبادة البطولة الكامنة فيه.

في ولائهم للراحل الكبير حوّل دعاة هذا الفكر المقاوم- وهم الناصريين السابقين- التاريخ والواقع الموضوعي إلى عجينة في يده يستطيع أن يصنع بها ما يشاء. فعندما تبينوا أنه لا يستطيع ذلك تركوه. لقد أعادوا القصة نفسها مع المقاومة، فحولوا أيضا التاريخ والواقع الموضوعي إلى عجينة في يدها، اسقطوا من التاريخ والواقع كل ما لا ينسجم مع صورتهم عنها. ولكن عندما تبينوا أن المقاومة لا تستطيع أن تتحكم بالتاريخ أو الواقع كعجينة أخذوا بالانفضاض عنها.

الفكر التقليدي المتخلف عبر عن ذاته بأساطير وقصص كأساطير عنتر وقصصه. وهذا الفكر المقاوم وإن تغيرت وتبدلت الأسماء والمسميات لا يزال يحاول نفس الأساطير والقصص. عنتر لا يهزم، عنتر يهجم على معسكر بكامله فيهزمه، عنتر ينتصر دائماً. عبد الناصر، المقاومة، يجب أن يهاجما أي عدو، في أي وقت، في أي مكان، وان يكون النصر حليفهما. هذه العقلية اللاواعية هي العقلية الرابضة وراء الفكر المقاوم. ولكن الفرق بين زماننا وزمان عنتر هو أن عنتر الذي كان أسطورة فولكلورية أصبح واقعة نفسية سياسية تعثر وتخرب وتهدم ثورتنا، تدمي القلب، وتدمع العين إشفاقاً على حالتنا. هذا الفكر الشعائري التبشيري، هذا الفكر المقاوم، يقف الآن متطلعاً إلى عمل جديد، يتساءل ما العمل ؟ يعجب كيف أن فتنة الحرب فشلت في فيتنام ونجحت في الأردن الخ ... ويدعو إلى طرح جواب جديد إلى موقف جديد، كأن لا علاقة له بما أصاب المقاومة و لا ضلع له بالموضوع، غير مسؤول من قريب أو بعيد عن ذلك. المأساة هي أن "الجواب الجديد" سيجد " جمهوراً" له.

المأساة هي أن ما قد يطلع به من "جديد" سيجد من يصغي له على الرغم من التلون السريع الذي يميزه. بعض فئات هذا الفكر غيرت في الواقع مواقفها "الثورية" الأساسية عدة مرات في السنوات الثلاث الأخيرة. فقد كانت ناصرية حتى عام ١٩٦٨، ثم اتخذت موقفاً "جديداً" يعادي الناصرية والمقاومة معاً ويدعو إلى بناء الحزب الثوري أولاً. بعد ذلك غيرت هذه الفئات موقفها وقدمت المقاومة كالثورة الجديدة كالحرب الشعبية التحريرية التي ستحرر

http://anssar.al-taleaa.net

فلسطين " من النهر إلى البحر" والآن فإنها تتخذ موقفاً رابعاً، يؤبن المقاومة ويندبها، يقول بفشلها، ضمناً على الأقل، يتساءل ما العمل ويحلم بجواب جديد "يتجاوز" فيه الوضع الحالي.

عندما يتجرأ الفكر الذي يفترض فيه أن يكون ثورياً وطليعياً أن يتخذ مواقف فكرية من هذا النوع اللفظي الشعائري والتبشيري، من هذا النوع الارتجالي، فيزعم أنها مواقف علمية موضوعية تطابق الواقع وما يسوده من اتجاهات، فذلك يدل بوضوح أن مستوى النضوج الفكري والوعي الثوري في الجمهور الذي يتجه إليه مستوى بائس تعيس وشقي.

http://anssar.al-taleaa.net

هوامش

---

[١] راجع بشكل خاص كتابنا من النكسة الى الثورة فصلي "الانحراف الفكري" و "التمثيل على الانحراف الفكري".

[٢] أنني أعني بهذا الفكر كل فكر ثوري قدم المقاومة كحرب تحرير شعبية، دورها أن تؤدي إلى إسقاط إسرائيل كثورة تتجاوز كل الثورات العربية الأخرى وتصحيح ما فيها من نقص، كثورة يجب الارتباط بها دون هذه الثورات. إنه كل فكر انطلق من مقولة النضال الفلسطيني واستقلال هذا النضال، من مقولة فلسطين والثورة الفلسطينية بدلاً من الانطلاق من مقولة الأمة العربية والوطن العربي، النضال العربي القومي الثوري والدولة الواحدة. هذا هو الفكر المقاوم الذي أعنيه الآن. هناك فكر مقاوم آخر يرتبط بالمقاومة، يعطيها ولاءه ويدعمها، ولكن بالانطلاق من منطلقات أخرى معاكسة. أما السبب في الرجوع، في هذا البحث، إلى الأول على أنه يمثل الفكر المقاوم، فإنه يعود إلى كون المقاومة نفسها تبنته إلى حد كبير وجعلته فكراً لها.

[٣] للتوسع راجع مقال الأستاذ ناجي علوش في مجلة مواقف عدد٨

http://anssar.al-taleaa.net